

عبرة من التاريخ كلمات تذهب بملك آل صفرة

للمؤرخ الكبير : الشيخ عبد الوهاب النجار
أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

— ٣ —

يزيد وال على خراسان : تولى يزيد خراسان و فرق عماله و قد جعل و كده و همته ان يفتح جرجان . و السر في اهتمامه بها أن قتيبة بن مسلم لما ولى خراسان بعد يزيد فتح فتوحا كثيرة فكان كلما فتح قتيبة فتحا يقول سليمان ليزيد وهو عنده : ألا ترى فتوح قتيبة ؟ فكان يزيد يصغر من شأن تلك الفتوح ويقول : فما صنعت جرجان التي قطعت الطريق و أفسدت قومس و نيسابور ؟ هذه الفتوح ليست بشيء ، الشأن هي جرجان . فلما و لاه سليمان لم تكن له مهمة غير جرجان . لم تكن جرجان في ذلك الوقت مدينة وإنما هي إقليم جبلي ، ففيه المضائق و المخارم الكثيرة . من الحصانة و المنعة بحيث يقوم الرجل الواحد على الباب من أبواب الجبل فيصد الجيش عن الاجتياز ، و كانت تلك البلاد لم تفتح أيام فتوح عمر . لكن سعيد بن العاص أيام ولايته الكوفة قصدتها في جند كبير فصالحه أهلها على مائة ألف درهم ليكف عن قتالهم فصالحهم ، ولكنهم كانوا لا يؤدون مال الصلح بانتظام ، بل كانوا تارة يؤدون و تارة يمنعون و كانوا يقطعون طريق المسلمين عليهم إلى خراسان و يفسدون في البلاد المجاورة لهم كقوس ، فتحامى المسلمون طريق جرجان ، لذلك جعل يزيد جرجان اكبر همه و قصدتها في مائة ألف مقاتل من أهل الشام و العراق و خراسان سوى الموالي و المتطوعة و كان سكان تلك الجبال طائفة من الترك . لا أريد أن أطيل على القارئ الكريم بذكر تفصيل ما أبلى يزيد في جرجان و ما لاقى هو و جنده من الصعاب ، فتلک خطوب طويلة عريضة . وإنما أقول : إنه فتح تلك البلاد و ترك في جهاتها المساح لحفظ الأمن و حفظ خط الرجعة فلما أبعد عنها غدروا بمن عندهم من المسلمين و قتلوهم فرجع إليهم و حاربهم احد حرب إلى أن ظفر بهم و قتلهم شر قتل بعد اشد قتال و قتل منهم و أجرى الماء على دمهم حتى طحن عليه و وفي بندره . و كان اقتتاحها للمرة الأولى في سنة ٩٨ هـ ، و كذلك فتحها للمرة الثانية .

و قد غنم يزيد في غزواته اموالا كثيرة و سبى سبيا كثيرا ، و كتب بالفتح و الغنيمة الى سليمان و عظم أمر الغنيمة نهظيما كثيرا و أنه قد بلغ خمس الغنيمة ستمائة الف ألف أي ستمائة مليون من الدراهم . ولكن سياق الكلام يدل على أنه كتب الخمس اربعة ملايين فقط ، لأن ابن الأثير قال في آخر الكلام : و قيل كان المبلغ اربعة آلاف الف .

لما كتب يزيد بمقدار المال عارضه كاتبه المنيرة بن ابى قرة مولى بنى سدوس ، وقال له لا تكتب تسمية المال فانك من ذلك بين أمرين — إما استكثره فأمر بك بحمله وإما سمحت نفسه لك به فأعطاكه فتكلف الهدية فلا يأتيه من قبلك شئ إلا استقله فكأنى بك قد استغفرت ماسميت ولم يقع منه موقعا ويبقى المال الذى سميت مغلدا فى دواوينهم ، فان ولى وال بعده أخذك به وإن ولى من يتحمل عليك لم يرض بأضعافه ولكن اكتب نفسه القدوم وشافه بما أحببت فهو أسلم. أما يزيد بن المهلب فلم يصغ إلى هذه النصيحة الصافية فأمضى الكتاب وأرسله إلى سليمان .

عزل يزيد بن المهلب وسجنه : ضرب الدهر ضرباته وتوفى سليمان بن عبد الملك لتسع من صفر سنة ٩٩ وولى عمر بن عبد العزيز بعده وكان عمر بن عبد العزيز يكره يزيد وآل المهلب ويقول: إنهم جبابرة، فهو بالطبع يكره ولا يهتم . وكان يزيد يكره عمر بن عبد العزيز ويقول: إنه مرء ، فكتب عمر إلى يزيد يأمره بالاستخلاف والقدوم عليه فاستخلف ابنه مغلدا وأخذ فى القدوم عليه ، ولكن عمه كان قد ارسل إلى عدى بن أرطاة يأمره أن يرسل إليه يزيد موثقا، وكان يزيد قد جاوز جرجان إلى واسط فلاحق به موسى بن الوجيه الحميرى وقيده وبعث به إلى عمر مقيدا .

دعا عمر يزيد وطالبه بالمال الذى كتب به إلى سليمان — وهذا مصداق ما قاله كاتب يزيد له وحذره منه — فقال يزيد: كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت، وإنا كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى به ، فقال عمر : لا أجد فى أمرك إلا حبسك . فائق الله وأد ما قبلك فانها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها ، وحبسه بحصن حلب .

مغلد بن يزيد يسعنى فى نكال ابيه : ولى عمر بن عبد العزيز الجراح بن عبد الرحمن الحكى واليا على خراسان ، فأقبل مغلد بن يزيد بن المهلب إلى الشام وفى طريقه فرق أموالا عظيمة حتى قيل إن عطايه فى طريقه بلغت الف الف درهم . فلما قدم على عمر قال له : يا أمير المؤمنين ! إن الله متع هذه الأمة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك ، علام تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أتحمل ما عليه فصالحنى على ما تسأل ، فقال عمر : لا ، إلا أن تحمل الجميع ، فقال يا أمير المؤمنين ! إن كانت لك بينة فخذها وإلا فصديق مقالة يزيد واستحلته ، فان لم يفعل فصالحه . فقال عمر : ما أخذه إلا بجميع المال ، فخرج مغلد من عنده ، فقال عمر : هذا خير من أبيه ، ثم لم يلبث مغلد إلا قليلا حتى مات وصلى عليه عمر بن عبد العزيز وقال : اليوم مات فتى العرب وأنشد :

بكوا حذيفة لا تبكوا مثله حتى تبديد خلائق لم تخلق

ولقد هم عمر أن ينفى يزيد إلى دهلك (وهى جزائر بالقرب من باب المندب بالبحر الأحمر، وكانت منفى للصوفى والفاسق) فصرفه عن ذلك سلامة بن نعيم الحولاني مخافة أن ينتزع قومه .

خوف يزيد بن المهلب من الوقوع في يد يزيد بن عبد الملك: كان يزيد بن المهلب يفرق كل الفرق من تمكن يزيد بن عبد الملك منه لأمرين: أحدهما ما قدمنا من الحوار بينهما وتوعد كل منهما الآخر. ثانيهما — أن يزيد بن عبد الملك وسليمان كانا على طرفي تقيض في شأن آل أبي عقيل عشيرة الحجاج الثقفي، فكان صفو يزيد بن عبد الملك إليهم يحطب في حبلهم ويحل موضعهم ويحذب عليهم ويقيهم من كل مكروه بكل ما يسهه جهده، وهم بعد أصهاره لأنه كان متزوجا أم الحجاج بنت أخي الحجاج بن يوسف.

ولا يعزب عن القارئ الكريم أن الحجاج كشر عن انيابه ليزيد بن عبد الملك واتخذ هدا سعايته ورماء بكل عضيته.

ولم يزل بالوليد بن عبد الملك حتى تغير عليه قلبه وسمح له بعزله وتعذيبه واغرامه واستخراج الغرامة منه، كما عذب إخويه: اباعينته وحبيبا، ولم ينجه منه إلا هربه واستجارته بسليمان فهو موقوف من الحجاج يتمنى أن يشفى غليله من آل أبي عقيل.

فلما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة كان من أكبر همه آل أبي عقيل فأخذهم وسامهم إلى يزيد بن المهلب ليستخرج منهم الأموال، فبعث إلى البلغاء من أعمال دمشق من أخذ خزائن الحجاج بن يوسف وعياله فنقلهم وما معهم إليه، وكان فيهم أخت أم الحجاج زوج يزيد بن عبد الملك، فعذبها في سبيل المال، فأتى يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلب في منزله فشفع فيها فلم يشفعه متجاهلا مكاتته من الخلافة ومكاتته إلى أبي عقيل منه، غير مقيم لذلك وزنا ولا حسب لدورات الفلك حسابا، فقال له ابن عبد الملك: الذي قررتم عليها أنا أحمله، فلم يقبل منه ابن المهلب ذلك، وحمل ابن عبد الملك ما كان مقررا عليها وكان مائة ألف دينار أو أكثر وقال له يزيد بن عبد الملك: «أما والله لئن وليت لأقطعن منك عضوا» فقال ابن المهلب: «وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف»

لما حصل يزيد بن المهلب في سجن عمر بن عبد العزيز لم يله ذلك، لأنه يثق بأن عمر يتعدى حدود الله في أمره، وقد تغير اعتقاده فيه بعد ولايته. وقد كان في سجنه مرفها لم يعتقه بسوء ولم يعمل في جسمه سوطا ولم يأخذه بعذاب.

فلما مرض عمر بن عبد العزيز وتحدث الناس بما آبه مرت على خاطر يزيد بن المهلب تلك الحوادث مرور الخيال على لوحة السينما، واستعرض أحواله مع ولي العهد يزيد بن عبد الملك وتصور هول ما يحل به من ألوان العذاب إذا ظفرت يده به، وما يحل به من الهوان في يده بعد أن كان يخاطبه مخاطبة الند للند، ويستعلي عليه في الحوار استعلاء القوى القادر على الضعيف العاجز، فأخذ يضرب أخماسا لأسداس حتى هدته الحيلة إلى أن يصنع مع عمر بن عبد العزيز ما صنعه وهو في أسر الحجاج من الهرب، فدبر أمره وصانع الحراس وبذل لهم من الرغائب ما سهل عليهم إطلاقه

وارسل إلى مواليه فأعدوا له الخيل والركاب في مكان واعدتهم عليه ووافاهم به وولى وجهه شطر البصرة وكتب إلى عمر بن عبدالعزيز كتابا يقول فيه:

« إني لو الله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك، ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة ». ورد الكتاب على عمر وبه رمق فقال: « اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءا فألحقه به وهضه فقد هاضني ».

مات عمر بن عبدالعزيز على أثر ذلك وولى يزيد بن عبد الملك فكان أمر يزيد بن المهلب أكبر همه فأرسل إلى ولاته بالعراق يحذرهم أمر يزيد ويأمرهم بالاحتراص، وأمر عدي بن أرطاة وإلى البصرة أن يأخذ من بالبصرة من آل المهلب، فأخذهم وألقاهم في غيابة السجن: فيهم المفضل وحبيب ومروان بنو المهلب.

وأما يزيد فأقبل على البصرة وقد أعد له عبد الحميد بن عبد الرحمن جندا يصدونه عن الطريق ويقتلونه إذا قاتل، فمر يزيد بالعذيب قريبا منهم ولم يعرضوا وجاء يزيد في أصحابه وتلقاه أخوه محمد بن المهلب فيمن اجتمع إليه من اهله وقومه الأزد ومواليه، فصار في جند يخشى بأسه. أما عدي بن أرطاة فقد جمع خمسة كتائب وأمر عليها الأمراء وخذق على البصرة، وأقبل يزيد فيمن معه لا يمر بكنتية من كتائب أهل البصرة أو خيل من خيلهم أو قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن طريقه هيبة له حتى نزل داره، فاختلف الناس إليه، وأرسل إلى عدي بن أرطاة: أن ابعث إلى إخواني وإلى أصحابك على البصرة وأخليك وإياها حتى أخذ لنفسى من يزيد ما أحب.

كان هذا الأمر مقبولا معقولا ولو أن عديا رضى به لكان الأمل في حسن العاقبة مرجوا، ولكن عديا لم يعره أذنا مصغية وظل سادرا لا يبالي يزيد بن المهلب.

ندع يزيد هنيهة، ونقول: إن حميد بن عبد الملك بن المهلب أراد أن يتلا في هذه الفتنة وسعى في إطفائها من طريق الذهاب إلى يزيد بن الوليد بدمشق، وضرع إليه في أن يكتب بأمان يزيد بن المهلب وآله لأن في ذلك إطفاء الفتنة والتسليم عليها قبل أن تشب عن الطوق، وكأني بالخليفة يزيد بن عبد الملك قد أصغى إلى هذه النصيحة ومال إلى رآق هذا الفتق رغبة منه في الترفية عن الرعية في بدء ولايته وأن يغضى ليزيد بن المهلب عن زلاته الماضية رجاء حسن طاعته في مؤتلف خلافته، فكتب بأمانه وأمان آل المهلب، وأرسل كتاب الأمان على يد خالد القسري وعمر بن يزيد الحكمي، وهذا يدل على ما عند يزيد بن عبد الملك من سماحة النفس ورجاحة العقل وحب المصلحة للرعية وقصد استصلاح المشاقيق له واستخلاص طاعتهم.

ولو تم هذا الأمر لكان حسنا، ولحفظ آل المهلب ولم يستأصلوا، ولبقى لدولة آل مروان بهجتها وزينتها وعنفوان مجدها.

نرجع إلى يزيد بن المهلب نجده قد أخذ يعطى الناس قطع الذهب والفضة، ويفيض نواله فيهم

باليمن وبالشمال، وعدى بن ارطاة الوالى لا يعطى كل جندى إلا درهمين، ويقول: لا يحل لى أن أعطيك من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن تبلغوا بهذا حتى يأتى الأمر فى ذلك. فكانت تقتير عدى بن ارطاة وسماحة يزيد بن المهلب سبباً فى تكثير سواد يزيد وانضواء الناس إليه، حتى كثر جمعه وصار ذا قوة لا يستهان بها، وما زالت الأمور تترقى إلى أن التقي جند الحكومة بجند يزيد فهزمهم المرة بعد المرة، ودنا من القصر فخرج إليه عدى بن ارطاة بنفسه فى جنده، فقتل عدة من فرسانه: كوسى بن الوجيه الحيرى، والحارث بن المصرف الأودى وانهم أصحاب عدى.

فى ذلك الوقت سمع من فى السجن من آل المهلب الأصوات فخدسوا أن يزيد قد خرج وانتصر وخشوا أن يأتى بعض من فى أنفسهم فقد عليهم من أتباع عدى فيقتلهم قبل أن يصل يزيد اليهم فأغلقوا باب السجن واستعدوا للقاء من يريد بهم شراً خلفه، وكان ما حذسوه حقاً، فقد جاءهم عبد الله بن دينار مولى بنى عامر، وكان على حرس عدى بن ارطاة، وعالج هو وأصحابه الباب فلم يقدروا على قلعته وأعجلهم الناس غفلوا عن السجن وجاء يزيد بالسلام وفتح القصر ووقع عدى بن ارطاة اسيراً فى يديه فحبسه وقال: لولا حبسك أخوى ما حبستك.

رؤساء اهل البصرة: لما ظهر يزيد بن المهلب على البصرة كان كثير من رؤسائها ظاهرين بمنائهم معدين لحربه مع الأمير، فدخلهم الخوف منه فطاروا: فريق إلى الكوفة، وفريق إلى الشام، خشية أن يعتربهم يزيد بن المهلب بسوء.

عمل حميد بن المهلب فى إطفاء الفتنة: فى تلك الأثناء أحس حميد بن المهلب - وهو أخو يزيد - تخرج موقف آل المهلب وأيقن أن يزيد بن عبد الملك غير تاركة، وهو رجل فى يده أموال الدولة الأموية ورجال الأقطار الإسلامية، وأن يزيد بن المهلب لا طاقة له بحربه وأن النتيجة فى آخر الأمر هلاك آل المهلب لأنهم لا يتركون يزيد فريداً، بل لابد لهم من أن يضربوا من ورائه بسيوفهم، وأن يقدموا أنفسهم وقوداً فى اتون الحرب المنتظرة فعمل على تلافى الأمر، خفف إلى يزيد بن عبد الملك، وذكر له طاعة آل المهلب وبلاءهم فى خدمة دولة بنى أمية واعتصامهم بطاعة خلفائها، وأن يزيد ابن المهلب إنما ركب هذا المركب الخشن لخوفه منه، فلو بذل من الأمان ما تطمئن به نفسه لوجده سامعاً مطيعاً.

وكأنى بيزيد بن الوليد قد رجا إطفاء تلك الفتنة بهذه الوسيلة، فأصغى إليه وكتب بأمان يزيد ابن المهلب وكل شئ اراده، وبعث كتاب الأمان مع خالد القسرى وعمر بن يزيد الحكيم ومعهما حميد بن المهلب إلى البصرة.

عبد الوهاب التجار

(يتلى)